Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/312

تحليل الخطاب القرآني من منظور لسانيات النص

The analysis of Koranic discourse from the perspective of textual linguistics

د. عثمان انجوغو تياو .كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة . جامعة شيخ أنتا جوب بدكار – السنغال

المرسل: thiawousmandiogou@gmail.com
الإرسال:28 /08 /2020 2020/10/09 النشر 06 نوفمبر 2020

E . ISSN : 506-2602X
ISSN : 2335 - 1969
الصفحة من : 273 إلى 292

Discourse, J. M. ADAM states, is an utterance that can certainly be characterized by textual properties, but above all as an act of discourse performed in a situation (participants, institution, place, time). The text, on the other hand, is an abstract object resulting from the subtraction of the context operated on the concrete object (speech).We notice here that the notion of discourse is contextualized: one cannot attribute meaning to discourse out of context. The same utterance pronounced in two different places can correspond to two distinct places. This relatively recent use of expressions such as “text linguistics”, “textual linguistics” and more generally the recognition of the text as a linguistically relevant unit, has given the discourse label a broad and particular meaning. This linguistics of the text which has come to appropriate the data of the previous theories of transphrastic grammar, structural linguistics and stylistics beyond its own new contributions, is a theory of the co(n)textual production of meaning which is necessary to base on the analysis of concrete texts.

Keywords: Textual linguistics, Discourse analysis, Koran, Coherence and cohesion, Intertextuality

الملخص :

النص والخطاب مصطلحان لا يمكن الفصل بينهما، ولذلك يظهران في الغالب الأعم مترادفي الاستعمال ومتلاصقين حيث توسع مفهوم الخطاب تحت مظلة لسانيات النص التي تعد من أحدث المناهج اللسانية الحديثة؛ وقد ظهرت نتيجة ارتكاز علوم عديدة والتقاء اختصاصات متنوعة، حيث نشأت على أنقاض علوم سابقة لها كلسانيات الجملة واللسانيات البنيوية والأسلوبيّة والذّرائعيّة، ثم انطلق من معطياتها لتبني عليها نظريات شاملة تندرج تحتها قضايا مختلفة وظواهر متباينة أهمها الاتساق والانسجام، والسبك والالتحام، والتماسك والترابط، والتناسق والتعالق، والسياق والتواصل ونحوها. وهي عناصر متفاعلة متكاملة تعمل لتوحيد النص وإيداعه الشمولية على أوسع نطاق ممكن، وتجعل النص وحدة بنائية من حيث التركيب

والدلالة، يصله بسابقه ولاحقه ويضمه إلى بيئته وواقعه. وعلى هذا فإن منهج تحليل الخطاب القرآني وما يحيطه من أنظار وموادّ مختلفة تجدر دراسته دراسة مقاربة أو مقارنة بينه وبين المناهج المستجدة والمعاصرة حتى نرى تحقق كثير من هذه الأنظار في تحليلات القدامى للخطاب القرآني، ونعلم أن القرآن نص طيع يتكيف وفق هذه النظريات اللسانية الحديثة وتتجدد قراءته ودراسته بتجدد العصور والعلوم. فالقرآن الكريم نص ظهرت في تحليله العلاقات التوزيعة، والاتجاهات الدلالية، والمجالات التداولية، والمواقف الاجتماعيّة، والروابط الداخليّة، والمقامات الخارجيّة، والسّياقات المختلفة وغيرها.

الكلمات المفتاحيّة: لسانيّات النّصّ، تحليل الخطاب، القرآن الكريم، الاتساق والانسجام، التناصّ.

المقدمة

لسانيات النص، علم النص، علم لغة النص، علم اللغة النصي، النّصيّة، نحو النص، تحليل الخطاب، لسانيات الخطاب، نحو الخطاب: هذه مصطلحات يستعملها علماء اللغة المحدثون، يدور مفهومها حول محور لساني واحد وشامل. وكلها تعامل مع النص بوجه أو بآخر أدى إلى إحداث مناهج مختلفة الموارد متفقة المشارب تجعل النص قبلتها دراسة وتحقيقا ومقارنة وتحليلا ونقدا وتأويلا وتفسيرا. وقد جاء هذا العرض ليبين مدى انطباق هذا المنهج اللساني النصي على التراث القرآني. ويكفي دليلا على ذلك كون القرآن نقطة التقاء بين كثير من العلوم كالنحو والصرف والبلاغة والتفسير والحديث وأصول الدين والفقه وأصوله. ولم يقم مؤلّفو علوم القرآن بوضع تآليفهم تلك إلا حرصا على دراسة النص دراسة تقوم على الاتحاديّة والشموليّة. وحتى يكون القارئ على بينة من أمره فقد قدّمنا أمامه مبحثا يعالج بنيات النصوص ودلالاتها ويبرز العلاقة القائمة بين النص والخطاب اعتمادا على نظريات المحدثين وقواعدها. وأتبعنا هذا المبحث مبحثا آخر يقوم ببيان طريقة علماء التراث العربي في تحليل الخطاب القرآني، ليرى القارئ هذه المقاربة النصية اللسانية بين المنهج الغربيّ المستحدث والمنهج العربيّ الموروث وما فيهما من اتفاق في الانسجام والاتساق ونحوهما. واعتمدنا في هذه الدراسة على ثلاثة محاور نموذجيّة لبيان هذا التوافق والتواطإ ممّا يبرهن دقة وسلامة منهج القدامى في تحليلاتهم القرآنيّة: الأوّل: سبب النزول: وفيه نرى علاقة النص بمحيطه الاجتماعي أو سياقه الخارجي، ومنه سياق الحال ورعاية الموقف. والثاني: تفسير القرآن بالقرآن: وهو تفسير نص بنص آخر في نسقه الداخلي، ويقال عنه التناص، ومنه سياق

المقال أو السياق اللغوي. والثالث: النسخ: وهو يجمع بين الانسجام والاتساق، وبين السياقين؛ لأنه من جهة يهم في الداخل نصين أحدهما منسوخ والآخر ناسخ له، ومن جهة أخرى يستطلع ما وراء ذلك لنعلم أي النصين نسخ الآخر.

1.بين لسانيّات النص وتحليل الخطاب

ظهرت لسانيات النص إثر دعوات عديدة تدعو إلى ضرورة تجاوز حدود الجملة وإلى بنية لغوية أكبر وأوسع منها، ومن هذا المنطلق اتجهت اللسانيات إلى مرحلة جديدة لتؤسس نحوا شبيها بنحو الجملة غايته وضع قواعد تتحكم في إنتاج النص وتنظّم مكوناته، اصطلح الباحثون على تسمية مفهومه: "لسانيات النص". والصلة بين لسانيات الجملة ولسانيات النص وثيقة إلى الحد الذي لا يمكن الفصل بينهما، وتضيف لسانيات الجملة مهمة جديدة هي صياغة قواعد تمكّن الباحث من وصف الأبنية وصفا محكما متكاملا، لأن الجملة في النص ذات دلالة جزئية، ولا يمكن أن تتّضح الدلالة الحقيقية إلا بكلّية النص، أي بمراعاة الدلالات السابقة واللاحقة في التسلسل الجملي، ويجب النظر إلى النص مهما صغر حجمه على أنه وحدة كلّية مترابطة الأجزاء من خلال الأبنية الكبرى المتلاحمة داخليا التي يقدّمها النص لأن الجمل تحمل قيما جزئية لا يكون لها اعتبار كبير إلا باشتراكها في القيمة الكبرى المتكونة من ذلك التكوين الأكبر (النص). فالحكم الكلي لا يستند إلى جزئيات وأشتات الجمل، ولا يستقيم توجه النص إلا من خلال بنية كبرى تتسم بالانسجام والتماسك[1].

ولذلك قام علماء اللغة النصيون بتوضيح أهمية نحو النص من حيث كونه لا يقتصر على دراسة الجملة بل يهدف إلى دراسة الروابط بين الجمل وتتابعاتها ومظاهر انسجامها، محاولين إبراز أوجه الاختلاف بين نحو الجملة ونحو النص. والحقيقة أن الجملة ليست نقيض النص، ولا يحسن أن ندرس النص في مقابل الجملة، ولكن التركيز على النص لدراسة أشمل للكلام بعد أن كانت الدراسة تتركز نظريا على الجملة لا يكون إلا استمدادا ووثبة من مرحلة دنيا إلى مرحلة عليا. إذن فالعلاقة بين لسانيات الجملة ولسانيات النص، هي علاقة ترابط واشتمال لا علاقة تنازع وانفصال كما يتخيلها البعض، بل هي علاقة احتواء الكل للجزء كما ذهب إلى ذلك فان دايك ومن لف لفه.

ولما كانت الجملة جزء لا يتجزأ من النص، فمن البديهيّ أن يتضمن نحو النص نحو الجملة تبعا لتضمن النص للجملة، فكل ما دخل في موضوع لسانيات الجملة فهو داخل لا محالة في موضوع لسانيات النص، والعكس غير صحيح، وعلى هذا فإن العلاقة بهذا الاعتبار تتحول من القيام على التكامل إلى القيام على التضمن، أي تضمن الكل – وهو نحو النص – للجزء – وهو نحو الجملة.

ويمكن تعريف النص في الدراسات اللسانية الحديثة بأنه كلام "متصل ذو وحدة جلية تنطوي على بداية ونهاية، ويتسم بالتماسك والترابط ويتسق مع سياق ثقافي عام أنتج فيه، وينسجم مع سياق خاص أو مقام يتعلق بالعلاقات القائمة بين القارئ والواقع من خلال اللغة، وبين بداية النص وخاتمته مراحل من النمو القائم على التفاعل الداخلي، وهذا التفاعل يؤدي بالنص إلى إحداث وظيفته التي تتمثل في خلق التواصل بين منتج النص ومتلقيه"[2]، وهو – كما بيّنه مفتاح – ذو صبغة تواصلية، لأنه يهدف إلى توصيل معلومات ومعارف ونقل تجارب ... إلى المتلقي؛ على أن الوظيفة التواصلية في اللغة ليست هي كل شيء، فهناك وظائف أخرى للنص اللغوي أهمها الوظيفة التفاعلية التي تقيم علاقات اجتماعية بين أفراد المجتمع وتحافظ عليها. وهو فوق ذلك مغلق، ويقصد بالانغلاق سمته الكتابية الأيقونية التي لها بداية ونهاية، ولكنه من الناحية المعنوية توالدي لأن الحدث اللغوي ليس منبتقا من عدم وإنما هو متولد من أحداث تاريخية ونفسانية ولغوية... وتتناسل منه أحداث لغوية أخرى لا حقة له[3]. فالنص يتأثر بالأعراف الاجتماعية والعوامل النفسية وتتشكل بنيته بحسب ضوابط المشاركين والمستقبلين على حد سواء. ومن هنا فإن أهم ملمح في علم النص أنه غني متداخل الاختصاصات، يشكل محور ارتكاز عدة علوم إنسانية.

ولسانيات النص مجالها النصوص سواء كانت مكتوبة أو منطوقة؛ فمن ناحية يشير إلى جميع أنواع النصوص وأنماطها في السياقات المختلفة، كما أنه من ناحية أخرى يتضمن جملة من الإجراءات النظرية والوصفية والتطبيقية ذاتِ طابع علمي محدد. فهي تسعى إلى تحليل البنى النصية واستكشاف العلاقات التي تساهم في اتساق النصوص وانسجامها والكشف عن أغراضها التداولية، كما تسعى إلى تفسير النصوص وفق قواعد جديدة تركيبية ومنطقية بظواهر نصية مختلفة منها علاقات التماسك، ودلالية لتقدّم شكلا جديدا من أشكال تحليل بنية النص. وتهتم بقضية الاتساق والانسجام؛ وهذا الذي يجعل من النص نصا، ويحقق للنص تماسكه جملة من العناصر اللغوية

اللفظية كالإحالة والتكرار والربط بحروف وأدوات مختلفة والفصل والوصل وغير ذلك، وتعنى بالنص كبنية كلّية[4].

أما بنية الخطاب فهي الموضوع المركزي لتحليل الخطاب، ولا يمكن لهذه البنية أن تقتصر على القول الذي ينجزه المخاطب في زمان ومكان معينين، وإنما تتعدى ذلك لتشمل الفعل القصدي ذا الأبعاد النفسية والاجتماعية فيصبح تحليل الخطاب حينها متعدّد الغايات بصفته عملا مؤثرا يمكن وصفه وتحليله وضبط آليات عمله، وتفسير اشتغاله في حدث التخاطب. فللخطاب علاقة بمختلف الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية والتاريخية والنفسانية والعقلانية والمنطقية. ودراسة الخطاب أيضا تقتضي أيضا الإلمام بمجموعة من المعارف المتعددة والعلوم المتداخلة. وتحليل الخطاب يسعى إلى دراسة المرامي الكلامية في الاتصال اللغوي كما تسعى عمليته التي تعتبر نشاطا تفاعليا بين المتكلم والمستمع، أو المؤلف والخطاب والقارئ إلى تفكيك الخطاب. ومهمته دراسة الخطاب مرتبطا بسياقه أو البحثُ في الخطاب مع مراعاة ظروف إنتاجه، ومهمة علم النص أو لسانيات النص هي دراسة ووصف بنية النص، والوقوف على مظاهر الترابط النصي فيه من إحالة واستبدال[5].

ولا يمكن أن يتجه الباحث إلى البحث في تحليل الخطاب بمنهج نصي دون مراعاة العوامل السياقية للخطاب وكذا مرجعية النص. فإذا كانت لسانيات النص تقوم بوصف الجملة أكبر وحدة لغوية أو الجمل في علاقات بعضها ببعض، فإن تحليل الخطاب يتجاوز هذه الوحدة إلى النص أو الخطاب. ومن هنا تتجه العناية نحو الأقوال والكلام والتخاطب، لا نحو النص فقط من حيث هو نص، ليكون التواصل والتخاطب وكيفياته ووظائفه ومراميه وضوابطه محور الاهتمام وصفاً وتحليلاً وتأويلاً ونقداً[6]. يقول ناعوس: "وقد لا حظنا عندما نطلق مصطلح "خطاب" فإن الذهن يتجه إلى إنجاز لغوي (سواء أكان جملة أم كان أكثر من جملة، وهو الغالب، أم كان جزء من جملة فقط، أو نصا ...) يربط فيه بين بنيته الداخلية وظروفه المقامية (أي بين مقاله ومقامه) ومستعمليه (من متكلم ومخاطب) ربط تبعية وتعلق، أي إن بنية الخطاب لا يمكن أن تتحدد إلا وفقا لهذه الظروف، وأنها (أي البنية اللفظية) خاضعة لوظائف المقام وظروف التواصل..."[7].

أما مفهوم النص فهو لا يتعدى كونه مجموعة من الجمل البسيطة، أو مجموعة من الجمل البسيطة والمركبة، التي تشكل خطابا، أي وحدة تواصلية تامة. فتكون أصغر وحدة نصية هي

الجملة. والعلاقة بين النص والخطاب علاقة تكاملية وتداخلية لا استقلالية، ولذلك نجد علم النص وتحليل الخطاب يترادفان في دراسة كثير من اللّسانيين. ومن هنا تشمل لسانيات النص إذا أُطلقتْ النصَّ والخطابَ كليهما حتى أطلق عليه أحد المعاصرين الغربيين من أبرز من عنوا بالمسائل النصيّة في العصر الحاضر وهو جان مشيل آدم برغبة توحيد المصطلحين في الدراسة اللسانية تسمية: "التحليل النصي للخطاب". وهذا الاتجاه نفسه الذي حاولنا هنا أن نسير عليه تطبيقا وتحليلا ومقاربة لنصل إلى بيان تحققه داخل النص القرآني.

وهنا شروط اشترط اللسانيون المحدثون تحققها حتى يقوم النص كصياغة لغوية متكاملة مستقلة، أهمها[8]:

1. التقارن أو الالتحام (الترابط المفهومي والمعنوي) Cohérence.
2. البنية: التضام أو السبك (الترابط النحوي) Cohésion: وجوب توفر شروط البنية مثل الائتلاف والانسجام والترابط والاتساق.
3. المقصدية (قصد المتكلم إيصال رسالة إلى المخاطب) Intentionnalité: يجب أن تخضع المتوالية في النص لقصد المتكلم ونيته: ويعني بها موقف منتج النص لإنتاج نص متماسك ومتناسق، باعتبار منتج النص فاعلا في اللغة ومؤثرا في تشكيلها وتركيبها، وأن مثل هذا النص وسيلة من وسائل متابعة خطة معينة للوصول إلى غاية بعينها.
4. المقبولية أو التّقبّلية (قبول المخاطب للنص من حيث هو كيان منسبك متلاحم) Acceptabilité: وهي وقف على تعاون المتقبل واستعداده.
5. الوظيفية Fonctionnalité: أن تكون جمل النص ذات وظيفة تواصلية.
6. الإفادة أو الإعلامية (وهي الإخبار) Informativité: ويشار بها إلى ما يحمله النص من المعلومات التي تهم السامع والقارئ.
7. المناسبة المقامية أو الموقفية (أي رعاية الموقف) Situationnalité: وتتضمن العوامل التي تجعل النص مرتبطا بموقف سائد أو مفيدا في مقام معين.
8. التناص Intertextualité: ويعني به العلاقات بين نص ما ونصوص أخرى مرتبطة به.

ووراء هذه الشروط معايير ينبغي – حسب دي بوجراند ودريسلير – أن تعتمد عليها في دراسة النص، وهي أربعة: عامل لغوي، وعامل نفسي، وعامل اجتماعي، وعامل ذهني.

2.تحليل الخطاب القرآني

إن المتأمل في النص القرآني يلاحظ أن القرآن على اختلاف سوره وآياته، وأجزائه وأحزابه، وعباراته وكلماته كتاب واحد لا يمكن فهم معانيه إلا إذا أدرج في إطاره العام. فهو خطاب متماسك اللفظ متسقه؛ تلتبس معاني الألفاظ والعبارات في كثير من الأحيان في أول وهلة إلاّ أن نأخذ بعين الاعتبار ما سبق وما لحق في الكلام ويسبك سبكا في قالب لغوي واحد. فانظر إلى من فسر قوله تعالى في سورة الصّافّات: "احشروا الذين ظلموا وأزواجهم" [الصّافات 22]، فقال: احشروا الظّالمين وزوجاتهم. ومن يتدبر القرآن يجد أن للفظ "أزواج" معاني ثلاثة: الحلائل في الآخرة كما في قوله تعالى: "ولهم فيها أزواج مطهرة" [البقرة 25]، وامرأة الرجل كما في قوله تعالى: "ولكم نصف ما ترك أزواجكم" [النساء 12] أي: زوجاتكم في الدنيا بعد موتهنّ، والأصناف كما في قوله تعالى: "سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض" [يس 36] أي: الأصناف من كل صنف من النبت. والأزواج يعني القرناء، فالزوج هنا يعني القرين أو النظير أو الشبيه أو المثيل، وهو المعنى المناسب في الآية، أي: احشروا الظالمين وقرناءهم في جهنم، كما قال بعض المفسرين: يُحشر الزناة مع الزناة وشاربو الخمر مع شاربيها. جاء في البيان: "وبعيد كل البعد، وغريب كل الغرابة، أن يحشر كل ظالم مع زوجته وإلاّ قلنا بحشر فرعون مع زوجته، وشتان بينهما هو من أهل السعير وهي من أهل النّعيم"[9]. فالقرآن كتاب متفرد واحد لا يقبل التجزئة كما قال منزله: "ذلك الكتاب" وكما ذم المقتسمين الذين يجعلونه عضين أي مفرقا، يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، يتمسكون ببعضه ويتركون البعض، فهو كتاب يؤخذ جملة أو يترك جملة حتى لا يتوهم اختلاف بعضه مع بعض. فهو نص واحد متفاعل وكامل متكامل، متماسك مؤتلف لا يصلح فيه التعارض ولا التضارب ولا التناقض، فيه الكثير من الظواهر التّركيبية التي تخرج عن إطار الجملة المفردة التي لا يمكن تفسيرها تفسيرا كاملا دقيقا إلا من خلال وحدة النص الكلّية. ولا يمكن أن يكون القارئ معصوما من الوهم والغلط في فهمه إلا إذا قرأه قراءة متسقة في بنيته ونظمه، منسجمة في فكره وموضوعه. ولم يجهل القدماء هذه الحقيقة، ولذلك أحسنوا في تفسيره وتحليله، كل حسب وجهته غير أن هذه الوجهات تلتقي في نهاية المطاف إلى نقطة واحدة وتشترك في مدونة واحدة. فكان الاهتمام بالنص بينا في العلوم الإسلاميّة المختلفة منذ نشأتها الأولى، وإن لم يكن هنالك تصور تنظيري محدد للتعامل مع علم خاص يعرف معرفة علم النص في العصر الحديث. فقد بذل القدماء جهودا مضنية في سبيل خدمة كتاب الله ذاتَ منزعٍ نصيّ، ولكنها كانت متفرّقة بين أكثر من علم

وأكثر من عصر. فهؤلاء القدماء وإن كانوا لم يفهموا مصطلح النص كفهم المعاصرين له إلا أنهم وقفوا تجاه النص موقفا عميما ونظروا إليه نظرة شمولية. فقد ذكر ناعوس في بحثه أن الخطاب القرآني خطاب إلهي، أصواته منسجمة متماسكة، ألفاظه واحدة لا تقبل التعدد وتركيباته وإيقاعاته مطلقة ولا نهائية، "ولذلك في عهد علمائنا القديم ظهر نحو النص بشكل واضح لديهم عند تفسيرهم للقرآن الكريم، فهذا السيوطي ينقل عن ابن العربي ارتباط آي القرآن بعضها البعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني"[10]. وقال بودرع: "ومن المعلوم أن النص القرآنيّ تناوله بالبحث والتفسير والتأويل علماء الفقه والأصول والتفسير والبلاغة والنحو، ولكن علماء "علوم القرآن" والمفسرين البلاغيين للقرآن الكريم كان لهم النصيب الأوفر في مقاربة النص القرآني، وذلك بتوظيف كثير من العلوم والآليات والأدوات التي تحيط بالنّص الكريم، من جوانب متعددة وتستكشف قيمه الدلالية وجوانبه الجمالية وعلاقاته الكلية، فكان هذا العلم مؤهلا لأن يكون أقرب إلى النهج الذي نهجته لسانيات النص وتحليل الخطاب، وهو صالح لأن يصاغ منه أنموذج تحليلي يستخرج أعماق النص ويكشف قيمه الجمالية"[11]. فالقرآن نص متحد في بنائه تلتف حوله مجموعة من المعارف والاتجاهات، لن نستطيع – كما يقول العلواني – أن نهتم بجانب من جوانبه ونهمل الجوانب الأخرى. فمعاني الآيات لن تسفر لك عن وجهها حتى تقرأها في سياقها وموقعها وبيئتها، ولن تبلغ الغاية ولن تدرك المراد حتى تلاحظ سائر العلاقات بين الآية وبين القرآن كلّه، لأن القرآن بناء محكم واحد، ونظم متفرد واحد، تسري فيه – كله – روح واحدة تحوله إلى كائن حيّ يخاطبك كفاحا، ويشتبك معك في جدل شامل يجيب به عن تساؤلاتك[12].

فإذا كان ذلك كذلك فلنا أن نقف وقفات على محاور ثلاثة توحي أن مناهج لسانيات النص قد تحققت في تحليلات العلماء للخطاب القرآني منذ العصور المتقدمة.

أ- سبب النزول

يراد بسبب النزول "ما نزلت الآية أو الآيات مبينة لحكمه أيام وقوعه" كأن تقع حادثة أو يوجَّه إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – سؤال فتنزل الآيات فيما يتصل بتلك الحادثة أو بجواب ذلك السؤال: فيقال بعد ذلك: "سبب نزولها كذا"[13]. وتعد معرفة سبب النزول أحد العناصر المعينة على فهم الآية أو النص القرآني، لأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبَّب كما يقول ابن تيمية في مقدمته

في التفسير. وبعبارة أدق: إن هذه المعرفة تعين على فهم أدق وأحكم لهذا النص في الأعم الأغلب. ويذهب الواحدي في كتابه "أسباب النزول" إلى أبعد من ذلك حين زعم أنه تمتنع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها. وهذا في آيات معينة وسور محددة لأن من القرآن ما نزل ابتداء ومنه ما نزل عقب حادثة أو جوابا عن سؤال؛ وفي ذلك يقول مؤلفا البيان: "وأكثر القرآن نزل ابتداء ليعالج الأوضاع والعادات الفاسدة القائمة آنذاك، فليست كل آية لها سبب وليس كل ما ذكر من الأسباب سببا في الحقيقة، فسبب النزول هو الحادثة التي وقعت في عهد الرسول – صلى الله عليه وسلّم – ونزل بشأنها قرآن أو الأسئلة أو الاستفسارات الموجهة إلى النبي – صلعم – وجاءت الآيات مجيبة عنها"[14]. فبيان سبب النزول – كما يؤكد ذلك بعض العلماء – طريق قويّ في فهم معاني القرآن[15]. وهذا يظهر جليا في تفسير سورة المزمل أو المدثر أو سورة عبس وبعض السور والآيات الأخرى. فما بال القارئ الخالي الوفاض والذي ليس له خلفيات في السيرة والتاريخ مثلا لو وقف أمام سورة المسد، ألا يحتاج أن يبين له السبب أو تذكر له القصة حتى يتمكن من معرفة السورة وفهم الآيات بخصوصها وعمومها؟ وكذلك الأمر في مواضع كثيرة، لأن معرفة سبب النزول تعصم المفسر أو المحلل أو القارئ للنص من الوقوع في الخطإ أو اللبس. يقول صبحي الصالح في بيان أهمية هذا الجانب: "ولا شيء كالتاريخ يشهد بصدق هذه السنة وانطباقها على وقائع الحياة: فما يسع مؤرخا ثاقب النظر دقيق الاستنتاج أن يجهل أسباب الحوادث ودوافعها إن أراد الوصول إلى الحقائق التاريخية الثابتة من خلال الوثائق والنصوص. لكن التاريخ لا ينفرد وحده بالحاجة إلى استنباط النتائج من خلال المقدمات، واستبطان الحقائق من مضمون الأسباب, بل العلوم الطبيعية والدراسات الاجتماعية والفنون الأدبية تشارك التاريخ كذلك في تطلعها إلى معرفة الأسباب والمسببات، واستشرافها إلى العلم بالمبادئ والغايات"[16]. ثم أردف مبينا ما قاله في هذا الصدد أنه على صعيد هذا الفن الأدبي الذي يعول فيه على النص الجميل متلوا مسموعا، أو مقروءا منظورا، والذي له صلة بالبحث الديني وقرابة، ما نكاد نفهم نصا ما فهما سديدا، أو نتذوقه تذوقا سليما، إلا إذا مهدنا بين يدي دراسته بإزاحة النقاب عن الظروف النفسية والاجتماعية التي دفعت الأديب إلى التفكير فيه، ثم حملته على اختيار ألفاظه وابتداع معانيه. ثم قارن بين قراءة النص القرآني والقصيدة الشعرية في احتياج كل منهما إلى اكتشاف الملابسات والمقامات التي تحيط بهما للوصول إلى فهم دقيق وشرح صحيح أو تفسير سليم. قال: "ولئن كانت معرفة جو القصيدة

والظروف التي نظمت خلالها تعين على الفهم السديد، وتسعف بالذوق السليم، وتواكب الشرح الأدبي جنبا إلى جنب، لَتَكونَنّ معرفة قصة الآية والأسباب التي اقتضت نزولها أعون على دقة الفهم، وأدنى إلى استلهام أرجح التأويل وأصح التفسير. ومن أجل هذا كان جهل الناس بأسباب النزول كثيراً ما يوقعهم في اللبس والإبهام, فيفهمون الآيات على غير وجهها، ولا يصيبون الحكمة الإلهية من تنزيلها"[17].

وقد تعرقل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى: "لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ" [آل عمران 188]، فزعم ألاّ أحدَ ينجو من عذاب الله إن كان الأمر كذلك. وقد بقي في إشكاله هذا حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت في أهل الكتاب اليهود حين سألهم النبي – صلى الله عليه وسلم – عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه أي طلبوا منه أن يحمدهم على ما فعلوا[18]. وهنالك زال الإشكال عنه وفهم مراد الله من كلامه هذا ووعيده أنه نزل في قضية معينة وخوطب فيه قوم معينون. وقال الله تعالى في سورة البقرة [115]: "وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"، فلو تركنا ومدلول اللفظ لاقتضى أن المصلي لا يجب عليه استقبال القبلة في أيّ حالة كان، ولكان هنا تعارض بين هذا وقوله تعالى [150–149]: "وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ. وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ". لكن إذا عُلم أن هذه الآية نازلة في نافلة السفر خاصة أو فيمن صلى باجتهاده ثم بان له خطؤه تبين أن الظاهر غير مراد، إنما المراد التخفيف على خصوص المسافر في صلاة النافلة أو على المجتهد في القبلة إذا صلى وتبين له خطؤه. وقد روى مسلم [149/2] عن ابن عمر رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت. وقيل: عميت القبلة على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة فلما أصبحوا تبينوا خطأهم فعذروا. ولذلك قال الزركشي: "فلا يفهم مراد الآية حتى يعلم سببها"[19]. فسبب النزول يقيد الآية ويدل على أن لها جانبا خصوصيا.

ومن ذلك قوله تعالى: "إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا" [البقرة 158]. فظاهر الآية يفيد الرُّخصة لا الفرضية في نفي الجُناح، وقد ذهب

بعضهم إلى عدم وجوب السعي تمسكا بذلك، وقد ردت عائشة على ابن أخته عروة بن الزبير في فهمه ذلك بسبب نزولها؛ وهو أن بعض الصحابة تأثموا من السعي بينهما لِمَا رأوه من عمل الجاهلية ولما كان فيه من الإشراك بالله لصنمين فيهما، فنزلت الآية لنفي الحرج وإثباته في الإسلام. وقد زعم قوم أن آية "نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ" [البقرة 223] تُجوّز إتيان النساء في أدبارهن، ولكن الرجوع إلى سبب النزول الصحيح يزيل هذه الشبهة وإن كان في لفظ الآية ما يؤكد ذلك كما جاء في "أضواء البيان": "كأنه قيل: فأتوهن من حيث يحصل منه الحرث". فعن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من خلفها في قبلها جاء الولد أحول، فنزلت[20].

وقد أتينا هذه النماذج لنرى مدى انسجام الآيات القرآنية بالسياقات الخارجية، ووجوب الرّبط بين اللغة والموقف الاجتماعي أو بوجه آخر بين النص وسياقه الاجتماعي، والتنبه لاشتباك العناصر اللغوية مع الأبعاد الدلالية والتداولية في النصّ كما ظهر للقدامى. "فليس من المجدي الاكتفاء بالوصف الظاهري لمفردات وأبنية تتضمن في أعماقها دلالات متراكمة نشأت عن استخدامها وتوظيفها في سياقات ومقامات مختلفة"[21].

ب- النّسخ

يذكر اللغويون لمادة النسخ عدة معان تدور حول: النقل والإثبات، والتبديل والتحويل، والرفع والإزالة. وأما مفهومه الشرعي فقد عرّفه المتأخرون من أهل هذا الفن بإيجاز بأنه "رفع الحكم الشرعي بدليل شرعيّ متأخر عنه"[22]. فالناسخ نص والمنسوخ نص آخر يكون دائما بينهما تعارض بحيث لا يمكن التوفيق بينهما، فيلزم حتما إثبات حكم الواحد وإلغاء الحكم الآخر. ومن هنا تظهر أهمية الناسخ والمنسوخ حتى لا تختلط الأحكام فتسببَ الأوهام. ولقد وردت آثار كثيرة تحث على معرفة النسخ وتمنع الكلام في القرآن والخوض في آياته وأحكامه لمن لم يتأهل له. وهذا الجانب له اتصال بالاتساق لأن فيه تقابل نصين، وبالانسجام لأنه يحتاج إلى معرفة النص المتقدم والنص المتأخر وتعيين السّابق والمسبوق من النوازل القرآنية، فيكون المتأخر ناسخا والمتقدم منسوخا. وليس الاعتبار هنا موقعهما في المصحف ولكنه يعرف إما بتاريخ نزولهما أو كون أحدهما مكيا والآخر مدنيا حسب مقتضيات المرحلتين، وإما بنص من السنة أو الأثر، وإمّا بقرائن أخرى داخلية أو خارجية.

قال تعالى: "كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ" [البقرة 180]، فهذه الآية منسوخة بآية المواريث في سورة البقرة [11] "يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا"، كما قال مالك في الموطإ بأن آية المواريث نَسَخَتْ فرض الوصية للوالدين. وقد أكّد ذلك النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي أخرجه التّرمذيّ فقال: "إن الله أعطى كلّ ذي حق حقّه، فلا وصيّة لوارث"[23]. ثم إن القارئ إذا وقف على آية البقرة [219]: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا" علم أن الله تعالى ذكر فيها بعض معائب الخمر ومفاسدها، ولم يجزم فيها بالتحريم؛ ولذلك قيل بأن قوما توقّف عن شربها بعد نزول الآية للإثم الذي ذكر فيها واستمرّ آخرون في شربها. وإذا وصل إلى آية النساء [43]: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حتى تعلموا ما تقولون" فهم منها جواز شرب الخمر في غير أوقات الصلاة؛ ولذا لم يزل بعض الصحابة يشربها بعد نزولها. وهذا المفهوم منسوخ بآية المائدة [91–90] التي حرّمت الخمر تحريما باتاّ ونسخت ما تقدم، وهي قوله: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ". ولا يمكن أن نصل إلى النتيجة المُحتَّمة والحكم القاطع إلا إذا جمعت الآيات الثلاث فنعلم أن الخمر حرّمت بصفة تدريجيّة وأن الحكم استقر بنزول الآية الأخيرة. ومن هنا نعلم يقينا أن القرآن وحدة بنائية وأن الآيات القرآنية ملتحمة مسبوكة. ولو قرأنا كلّ آية على حدتها ولم نلق بالا لما حولها لما أمكن فهم هذه المعاني ولكنا قد جانبنا الصواب.

ج- تفسير القرآن بالقرآن

إذا أمعنا جيدا نرى بأن القرآن لا يمكن فهمه أو تفسيره فهما صحيحا وتفسيرا سليما إلا باتخاذ منهج يمكن أن نطلق عليه "المنهج القرآني" أي تفسير القرآن بالقرآن، ويطلق عليه المتخصصون مصطلح "التفسير بالمنقول"، وهو أفضل التفاسير وآكدها حسب تعبير الجرمي في معجم علوم

القرآن. وهذا المنهج مما لا غنى عنه للمفسر؛ وقد اعتمد عليه الفقهاء في استنباط الأحكام فيرجعون إلى وجوه القراءات في النص القرآني. وقد اهتم دارسو القرآن بالمتشابه اللفظيّ فيه حتى ألفت فيه كتب مستقلة. ولذلك قال ابن تيمية: "إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر"[24]. وقال القرعاوي والحسن: "فما أوجز في مكان قد يبسط في مكان آخر، وما جاء مطلقا قد يلحقه التقييد في موضع آخر، وما جاء عاما في آية قد يلحقه التخصيص في آية أخرى"[25]. وقال صاحب "المنار" ما يلي: "وَقَدْ قَالُوا: إِنَّ الْقُرْآنَ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَإِنَّ أَفْضَلَ قَرِينَةٍ تَقُومُ عَلَى حَقِيقَةِ مَعْنَى اللَّفْظِ مُوَافَقَتُهُ لِمَا سَبَقَ مِنَ الْقَوْلِ، وَاتِّفَاقُهُ مَعَ جُمْلَةِ الْمَعْنَى، وَائْتِلَافُهُ مَعَ الْقَصْدِ الَّذِي جَاءَ لَهُ الْكِتَابُ بِجُمْلَتِهِ"[26].

ومن هنا كثر ترداد علماء التفسير عبارة "القرآن يفسر نفسه" أو "القرآن يفسر بعضه بعضا" كلما وجدوا أنفسهم أمام آية قرانية تزداد دلالتها وضوحا بمقارنتها بآية آخرى أو لهما ارتباط شكلي أو ضمني. لأن دلالة القرآن تمتاز بالدقة والإحاطة والشمول, فقلما نجد فيه عاما أو مطلقا أو مجملا إلاّ وقد خصّص أو قيّد أو فصّل في موضع آخر. ولقد كانت هذه الدلالة الشاملة جديرة أن توحي إلى العلماء وضع مصطلحات خاصة يرمز بكل منها إلى السمة البارزة في كل فكرة يدعو إليها القرآن، وفي كل مشهد يصوره، ومن هنا نشأ في الدراسات الإسلامية ما يسمى بمنطوق القرآن ومفهومه، وعامه وخاصه، ومطلقه ومقيده، ومجمله ومفصله أو مبينه[27]، كما نجد في مصطلحاتهم المناسبة أو التناسب وهو – كما يقول أبو عمرو العَمِريّ –: "في اللغة: المشاكلة والمقاربة، ومرجعها في الآيات، ونحوها إلى معنى رابط بينها: عام، أو خاصّ عقليّ، أو حسّيّ، أو خياليّ، أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذّهنيّ؛ كالسبب والمسبب، والعلّة والمعلول، والنظيرين، والضّدّين، ونحوه. وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض؛ فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء"[28]. وذلك – كما يرى صاحب المباحث – بأن الكلام قلما يتم بآية واحدة، فتتعاقب الآيات في الموضوع الواحد تأكيدا وتفسيرا، أو عطفا وبيانا، أو استثناء وحصراً, أو اعتراضا وتذييلا، حتى تبدو الآيات المتعاقبات كالنظائر والأتراب[29].

فلو نظرنا إلى قوله تعالى: "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ" [الدخان 3]، وقوله: "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ" [القدر 1]، نعلم أن الليلة المباركة التي أجملت هنا هي ليلة القدر وأن الضمير راجع إلى القرآن لدلالة غيره، ثم قال: "شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ"، فدلّ على أن ليلة القدر في شهر رمضان، ولذلك قالوا: أنزل القرآن في ليلة القدر من رمضان. وقد ذكر هذا مفرّقا في القرآن. وقال تعالى: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ" [المائدة 3]. وقال في موضع آخر: "قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً" الآية [145/6]. جاء الدم مطلقا في أحد النصين وقيد في الآخر بكونه مسفوحا. وفي التّضام والتلاحم بين الآيات القرآنية يستطيع علماء الشريعة استخلاص بعض الأحكام بدلالة إشارة النص كما اتفقوا في ذلك على أقل مدة للحمل؛ قال الشنقيطي في "أضواء البيان": "اعلم أن العلماء أجمعوا على أن أقل أمد الحمل ستة أشهر، وسيأتي بيان أن القرآن دل على ذلك لأن قوله تعالى: "وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً" [الأحقاف 15]، إن ضممت إليه قوله تعالى: "وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ" [لقمان 14]، بقي عن مدة الفصال من الثلاثين شهراً لمدة الحمل ستة أشهر، فدل ذلك على أنها أمد للحمل يولد فيه الجنين كاملاً"[30]. ومن بيان المجمل وتفسيره داخل النص القرآني ما قاله سبحانه وتعالى في سورة الفاتحة: "مالك يوم الدين" بين ذلك وفسره في سورة الانفطار: "وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ. ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ. يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ". ومثله قوله: "اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم" فصل ذلك في سورة النساء: "وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً" [النساء 69].

فتحليل النص القرآني على أساس أنه نص منتظم متحد يمنع القارئ والمفسر من الوقوع على الخطإ والاضطراب وتوهُّم التعارض فيه. ففي القرآن آيات تذكر أطوار خلق الإنسان؛ فآية تذكر أن آدم خلق من تراب، ومرة تذكر خلق الإنسان من ماء، ومرة من طين، ومرة من صلصال ومن حمإ مسنون. فكل هذا يدل على أطوار مر بها خلق الإنسان. ومثله في قصص القرآن وخاصة قصص الأنبياء، فنجد القصة الواحدة قد ذكرت في مواطن متفرقة، وفي سور متعددة، فيحتاج إلى قراءة متكاملة، لأنه قد يفصّل في موضع ما أجمل في موضع، وقد يذكر في موضع ما لم يذكر في آخر، فإذا اجتمعت القصص المتفرقة أصبحت كأنها قصة واحدة تلتقي أطرافه وتلتحم أطواره. ولذلك قال

صاحبا البيان: "ولا غنى لنا في معرفة القصة إلاّ بجمع الآيات بعضها مع بعض، حتى تكون عندنا الصورة الشاملة والتفسير الكامل لهذه القصة القرآنيّة"[31]. وقال مناع القطان: "يشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذي تكرر في غير موضع، فالقصة الواحدة يتعدد ذكرها في القرآن, وتُعرض في صور مختلفة في التقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب، وما شابه ذلك"[32]، ثم ذكر أن من حكم تكرار القصص اختلافَ الغاية التي تساق من أجلها القصة فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام، وتبرز معان أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال.

وقد ذكر السيوطي في تخصيص عام القرآن قَوْلُهُ تَعَالَى: "وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ" [البقرة 228]، قال: "خُصَّ بِقَوْلِهِ: "إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تعتدونها" [الأحزاب 49] وَبِقَوْلِهِ: "وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ"[33] [الطلاق 4]. ولما نزلت آيات حد الزنا قال صلى الله عليه وسلم: «خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا»، يُشِيرُ بِجَعْلِ اللَّهِ لَهُنَّ سَبِيلًا بِالْحَدِّ، إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: "وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا" [النساء 15] ففسر السبيل بحد الزنا الذي ذكر في سورة النور [2] "الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة" وغيرها[34]. وعلى هذا الطراز قوله: "وأحلت لكم الأنعام إلاّ ما يتلى عليكم" [الحج 30]، بين الاستثناء وفسره في قوله: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ..." [المائدة 3].

وقد يقع تبيين المجمل وتخصيص العام وتقييد المطلق بالسنة النبوية، لأن القرآن الكريم والحديث أبد كما يقول الزركشي: "مُتَعَاضِدَانِ عَلَى اسْتِيفَاءِ الْحَقِّ وَإِخْرَاجِهِ مِنْ مَدَارِجِ الْحِكْمَةِ حَتَّى إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُخَصِّصُ عُمُومَ الْآخَرِ وَيُبَيِّنُ إِجْمَالَهُ، ثُمَّ مِنْهُ مَا هُوَ ظَاهِرٌ وَمَعَهُ مَا يَغْمُضُ"[35]. ولذلك لما قال القرآن: "وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة" [البقرة 110 / النور 56]، بيّن الرّسول هيئة الصلاة ومقادير الزكاة كما علّم مناسك الحج، فقال: "صلوا كما رأيتموني أصلّي"، وقال: "خذوا عني مناسككم"[36]. وكل هذا أمر من القرآن الكريم بالإشارة أو التصريح كما في قوله تعالى: "وَمَا آتَاكُمُ الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا" [الحشر 7] وَقَوْلِهِ: "مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ" [النساء

80]، وقوله: "وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم" [النحل 44]، وقال تعالى: "وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ" [النحل 64]، فكان من القرآن ما لا يعلم تأويله إلا ببيان رسوله، حتى قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ"[37] قال الأئمة: يَعْنِي السُّنَّةَ. وكذلك يُرْجَع إلى الصحابة في بعض الأحايين لفهم المعاني الغامضة والأحكام المنغلقة لما عاصروا الوحي وشاهدوا من القرائن والأحوال. ولولا هذا الاتحاد والتعاضد في تحليل النص القرآني لَتُوُهِّم التعارض والتناقض فيه، كما يذهب الشافعيّة إلى "أن المطلق والمقيد كالعام الذي يحتمل الخصوص، والمجمل الذي يحتمل البيان، فإذا ورد مجمل ومقيد وجب أن يكون الثاني مبينا للأول. ويكون كلا النصين بمنزلة نص واحد، كالنص المجمل مع النص المبين، حتى لا يؤدي إلى التناقض"، وقالوا: "إن كلام الله متحد في ذاته لا تعدد فيه"[38].

وكلّ هذا يساير مبادئ اللسانيات الحديثة في علم النص وتحليل الخطاب من حيث الانسجام والاتساق والالتحام والارتباط والسبك والتناسق والتماسك والتضام والتناص ... يقول عبد الرحمن بودرع أن من مظاهر الانسجام تفسير القرآن بالقرآن أي تفسير النص بالنص من داخل النسق القرآني نفسه، وأن من أهم مزايا بيان القرآن بالقرآن أنه يضع اليد على مظاهر التماسك والانسجام في النص الكريم، ويكون للمفسر ملكة يدرك بها أساليب القرآن ودقائق نظمه. "وهكذا فإن شرح كلمة قرآنية بأخرى أو جملة بأخرى أو آية بآية، من القرآن الكريم ليعد مظهرا من مظاهر انسجام النص القرآني، أما شرحها بأخرى من خارج القرآن فلن يؤدي المعنى المرجو، ويظل شرحا تقريبيا لأن العبارة اللغوية الشارحة لا تزن قيمة العبارة المنزلة وحيا. ولكنه على كل حال يظل خاضعا لمبدإ الترابط بين مكونات النص، سواء أكان ترابطا رصفيا (نظميا) أم كان ترابطا مفهوميا للأفكار، ويدخل هذا الارتباط أو هذه العلاقات في باب "التناص"، بمعنى أن بين النص وشرحه، أو بينه وبين تفسيره وتأويله أو بينه وبين ترجمته أو ترجمة معانيه إلى لغة أخرى أو محاكاته، أو أي شيء من هذا القبيل، رابطة تسمى "التناص"، فمن التناص تفسير القرآن بالقرآن، وتخصيص السنة لعموم القرآن"[39].

ABSTRACT :

The analysis of Koranic

discourse from the perspective of textual linguistics

Discourse, J. M. ADAM states, is an utterance that can certainly be characterized by textual properties, but above all as an act of discourse performed in a situation (participants, institution, place, time). The text, on the other hand, is an abstract object resulting from the subtraction of the context operated on the concrete object (speech).We notice here that the notion of discourse is contextualized: one cannot attribute meaning to discourse out of context. The same utterance pronounced in two different places can correspond to two distinct places. This relatively recent use of expressions such as “text linguistics”, “textual linguistics” and more generally the recognition of the text as a linguistically relevant unit, has given the discourse label a broad and particular meaning. This linguistics of the text which has come to appropriate the data of the previous theories of transphrastic grammar, structural linguistics and stylistics beyond its own new contributions, is a theory of the co(n)textual production of meaning which is necessary to base on the analysis of concrete texts.

The Koranic discourse being analyzed from several angles and by several scholars from different specialties and from different periods is found in a perspective of textual unity. The Koranic text is certainly seen as a semantic unit, a unit of meaning in context, a texture which expresses the fact that, forming a whole, it is linked to the environment in which it is placed. In this respect, is there a concordance or conformity between the classical method of Koranic discourse analysis and the new textual linguistics methods? Can we rely on textual linguistics for a new reading of the sacred text?

This study demonstrates the lucidity of the classical methods which, even not based on a unified and structured theory, have succeeded in giving the Koranic text all its coherence and cohesion. Consequently, the text becomes the central axis of a diversified study which, at the end, appears as a single unit, since it has the same object and the same objective. The exegetes, the rhetoricians and the composers of the “Sciences of the Koran” constitute the best inclined to a unifying and globalizing analysis, although the Koran remains the starting point of all the Arab-Islamic sciences.

Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/312

This work has undertaken to reconcile the word processing of the Arabiclanguageheritage about the Koran and the new theories and methodologies of modern linguistics around the same corpus. Indeed, the context and the cotext, coherence and cohesion, pragmatics and relevance are all factors which determine the analysis of the Koranic discourse.

Keywords: Textual linguistics, Discourse analysis, Koran, Coherence and cohesion, Intertextuality.

الهوامش والإحالات

[1] انظر: عدنان ثامر، "لسانيات النص وتحليل الخطاب – مفاهيم وأبعاد"، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللّغات، جامعة المسيلة، ص 4.

[2] خلود العموش، الخطاب القرآني: دراسة في العلاقة بين النصّ والسّياق، عالم الكتب الحديث / جدارا للكتاب العالمي، ط 1، إربد / عمان – الأردن 1429 هـ / 2008 م، ص 22.

[3] محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشّعري (استراتيجية التناصّ)، المركز الثقافيّ العربيّ، ط 3، 1992، ص 120.

[4] "يعد هاريس أول لساني حاول توسيع حدود موضوع البحث اللساني بجعله يتجاوز حدود الجملة إلى النص، عندما نشر سنة 1952 بحثا اكتسب أهمية كبيرة في تاريخ اللسانيات الحديثة يحمل عنوان "تحليل الخطاب Analyse de discours" الذي اهتم فيه بتوزيع العناصر اللغوية في النص كما اهتم بالربط بين النص وسياقه الاجتماعي. ثم توالت الدراسات بعد ذلك تترا، حيث بدأ اللسانيون يهتمون بما أشار إليه هاريس؛ من أهمية تجاوز الدراسة اللسانية مستوى الجملة إلى مستوى أكبر ألا وهو النص، والربط بين اللغة والسياق الاجتماعي وشكلوا بذلك اتجاها لسانيا جديدا، أخذت ملامحه ومناهجه وإجراءاته في التبلور منذ منتصف الستينات تقريبا، وذا الاتجاه عرف بـــ "لسانيات النص". انظر: بن يحيى ناعوس، تحليل الخطاب في ضوء لسانيات النص: دراسة تطبيقية في سورة البقرة، رسالة الدكتوراه، قسم اللغة العربيّة وآدابها، كلية الآداب واللّغات والفنون، جامعة وهران. 2013، ص 31.

[5] عدنان ثامر، "لسانيات النص وتحليل الخطاب – مفاهيم وأبعاد"، ص 14/6.

[6] محمد خطابي، "لسانيات النصّ وتحليل الخطاب: محاولة تساؤل وتدقيق"، مجلّة علامات، العدد 41، المغرب 2014، ص 102.

[7] ناعوس، تحليل الخطاب في ضوء لسانيات النص، ص 26.

[8] يقول روبرت دي بوجراند بعد أن سرد معاييره السبعة: السبك، الالتحام، القصد، القبول، رعاية الموقف، التناص، الإعلامية، ما يلي: "ومن هذه المعايير السبعة معياران تبدو لهما صلة وثيقة بالنصّ: (السبك والالتحام) واثنان نفسيان بصورة واضحة (رعاية الموقف والتناص). أما المعيار الأخير (الإعلامية) فهو بحسب التّقدير. ولكن يظهر من النظرة الفاحصة أنه لا يمكن لواحد من هذه المعايير أن يفهم دون التفكير في العوامل الأربعة جميعا: اللغة، والعقل، والمجتمع والإجراء. ومرة أخرى تظهر الحاجة الشديدة الإلحاح إلى البحث في تكامل

العلوم". روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسّان، عالم الكتب، ط 1، القاهرة 1418 هـ / 1998 م، ص 103–105. وانظر: تحليل الخطاب في ضوء لسانيات النص، ص 59/12.

[9] سليمان القرعاوي ومحمد الحسن، البيان في علوم القرآن، مكتبة الظلال، ط 2، المملكة العربية السعودية 1415 هـ / 1994 م، ص 311.

[10] ناعوس، تحليل الخطاب في ضوء لسانيات النص، ص 15.

[11] عبد الرحمن بودرع، في لسانيات النص وتحليل الخطاب: نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم، بحث مقدم لتطوير الدراسات القرآنيّة 1434/4/6 هـ / 2013/2/16 م، مركز تفسير للدراسات القرآنية، المملكة العربية السعودية، ص 15.

[12] طه جابر العلواني، الوحدة البنائية للقرآن المجيد، مكتبة الشروق الدولية، ط 1، القاهرة 1427 هـ / 2006 م، ص 18. وقد فهم القدامى هذه الحقائق عندما اشترطوا شروطا وقننوا قوانين وذكروا علوما لا بد منها لتفسير القرآن الكريم، أو بعبارة أخرى لا بد أن تتوفر حتى يتمكن القارئ فهم كتاب الله ومعرفته. لخص السيوطي ما ذكره الأئمة في ذلك في كتابه الإتقان (جـ 4، ص 213) فأورد منها خمسة عشر: اللّغة، والنحو، والتصريف، والاشتقاق، والمعاني والبيان والبديع، وعلم القراءات، وأصولا الدين والفقه، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والفقه، والحديث، وعلم الموهبة. وقيل كذلك: علم القصص والأخبار، وعلم الأسانيد والآثار، وزاد بعض المحدثين: السيرة والتاريخ، وعلم الاجتماع البشري، وعلم النفس وقواعده. وكلّ هذا يدل على استجابة الخطاب القرآني لقواعد التحليل والنص الّتي تفرض اجتماع المعارف والتقاء العلوم. انظر: محمد أبو شهبة، دراسات قرآنية، مكتبة السنة، ط 1، القاهرة 1429 هـ / 2008 م، ص 121.

[13] انظر: عدنان محمد زرزور، فصول في علوم القرآن، المكتب الإسلامي، ط 1، بيروت 1419 هـ / 1998 م، ص 14.

[14] القرعاوي والحسن، البيان في علوم القرآن، ص 171–172.

[15] قال صاحب البرهان (88/1): "قال الشيخ أبو الفتح القشيري: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز"، وقال صاحب الإتقان (108/1): "وَقَالَ ابْنُ دَقِيق الْعِيد: بَيَانُ سَبَبِ النُّزُولِ طَرِيقٌ قَوِيٌّ فِي فَهْمِ مَعَانِي الْقُرْآنِ".

[16] صبحي الصّالح، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت 2009، ص 127.

[17] المرجع السّابق، ص 129.

[18] البخاري محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح، تحقيق محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط 1، بيروت 1422 هـ، جـ 6، ص 40. ومسلم بن الحجاج، المسند الصحيح، دار الجيل، 1334 هـ، جـ 8، ص 122.

[19] الزركشي محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، ط 1، بيروت 1376 هـ / 1957 م، جـ 1، ص 29.

[20] انظر: البخاري 29/6، مسلم 156/4.

[21] تحليل الخطاب في ضوء لسانيات النص، ص 71.

[22] انظر تعريف النسخ مفصّلا في: محمد بكر إسماعيل، دراسات في علوم القرآن، دار المنار، ط 3، القاهرة 1419 هـ / 1999 م، ص 243–245.

[23] الترمذي محمد بن عيسى، الجامع الكبير، تحقيق بشار معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998، جـ 3، ص 504.

[24] ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم، مقدمة في أصول التفسير، دار ابن الجوزي، ط 1، القاهرة 1426 هـ / 2005 م، ص 91. وانظر: ابن كثير إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط 2، 1420 هـ / 1999 م، جـ 1، ص 7.

[25] البيان في علوم القرآن، ص 309.

[26] محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990، جـ 1، ص 20.

[27] راجع: صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص 299.

[28] أبو عمرو عبد الكريم العَمِري: قلائد الجوهر والتيجان على علوم القرآن، دار الآثار، ط 1، القاهرة 1430 هـ / 2009 م، ص 64.

[29] لمزيد من التفصيل انظر: المناسبة بين الآيات وتناسب السور في: محمّد خطابي، لسانيّات النصّ: مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثّقافي العربيّ، الدار البيضاء / بيروت، ص 189–198. وقد ذكر قبل ذلك أمورا تتعلق بهما وهي: تنظيم السور، وتغير موضوع الخطاب، وترتيب الخطاب (ص 181–186).

[30] الشنقيطي محمد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، بيروت 1415 هـ / 1995 م، جـ 2، ص 226.

[31] القرعاوي والحسن، البيان في علوم القرآن، ص 313.

[32] مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف، ط 3، القاهرة 1421 هـ / 2000 م، ص 318.

[33] السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1394 هـ / 1974 م، جـ 3، ص 53.

[34] جاء الجلد في هذه الآية، وقيل: إن رجم المحصنين جاء في آية منسوخة الحكم والتلاوة، وقيل: ورد في السنّة المطهّرة.

[35] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، جـ 2، ص 129.

[36] صحيح البخاري 128/1، صحيح مسلم 79/4.

[37] أحمد بن حنبل، المسند، تحقيق السيد النوري، عالم الكتب، ط 1، 1419 هـ / 1998 م، جـ 4، ص 130.

[38] محمد إسماعيل، دراسات في علوم القرآن، ص 229–230.

[39] بودرع، في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ص 35–36